الأسس المنهجية للإثنوجرافيا الرقمية

ا. نهاد محمد محمد سليمان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة قناة السويس

المستخلص

تكمن قوة العالم الافتراضي وشبكات التواصل الاجتماعي في أنها قادرة على التعامل مع الطبيعة البشرية، التي لا تتوقف عن التواصل والتفاعل والمشاركة وتكوين العلاقات، بدءاً من العالم الواقعي وصولاً الى العالم الافتراضي الذي أصبح قوة جاذبة للأفراد لا يستهان بها، حتى أصبحت وسيلة لممارسة الوجود. وقد ساهمت بعض النظريات الاجتماعية في تناول التفاعل الاجتماعي عبر الواقع الافتراضي بالتحليل، ولا شك أن من أهم وظائف النظرية أنها تمد الباحث بشكل مباشر بفهم أعمق وتفسير أشمل للظاهرة الاجتماعية محض الدراسة، مما يساعد على تحليلها بشكل علمي صحيح. ويهدف البحث الى عرض المدخل الاثنوجرافي في دراسة التفاعل مع المحتوى الإلكتروني، وعرض تعريف مفهوم الأثنوجرافيا الافتراضية، ومراحل تطورها وأنماط الممارسات المنهجية للاثنوجرافيا الافتراضية، كذلك يهدف البحث الى التعرف على مهارات الأثنوجرافيا الافتراضية ومبادئها، وأدوات البحث المستخدمة في الأثنوجرافيا الافتراضية، بالإضافة الى الكشف عن انعكاس الأثنوجرافيا الافتراضية على مفهوم الممارسة، والتعرف على المفاهيم الخاطئة الشائعة حول المنهج الاثنوجرافي، وأخيرا محاولة لاستشراف مستقبل البحث الاثنوجرافي.

abstract

The strength of the virtual world and social networks lies in the fact that it can deal with human nature, which does not stop communicating, interacting, sharing and forming relationships, starting from the real world to the virtual

world, which has become an attractive force for individuals to be reckoned with, until it has become a means of Some social theories have contributed to practicing existence. the analysis of social interaction through virtual reality. Undoubtedly, one of the most important functions of the theory is that it directly provides the researcher with a deeper understanding and a more comprehensive explanation of the purely studied social phenomenon, which helps to analyze it in a correct scientific manner. The research aims to present the ethnographic approach in the study of interaction with electronic content, and to present the definition of the concept of virtual ethnography, the stages of its development and patterns of methodological practices of virtual ethnography. Virtual ethnography on the concept of practice, identifying common misconceptions about the ethnographic method, and finally an attempt to anticipate the future of ethnographic research.

الكلمات المفتاحية: الاثنوجرافيا، الاثنوجرافيا الافتراضية، التفاعل، المحتوى الإلكتروني

مقدمة

يعد المؤرخ **هيرودوت** [١] أول اثنوجرافي عرفه التاريخ الغربي، فجاب أقطار الأرض والعالم القديم مدونا ملاحظاته وما توصل اليه من ملاحظة ومخالطة الشعوب المختلفة. ويمكننا القول أيضا أن من أعظم الاثنوجرافيين في القرون الوسطى الرحالة **بن بطوطة** [٢] الذي طاف ممالك وبلدانا مدونا أيضا ملاحظاته عن الشعوب والدول والقبائل. وقد ظهرت كلمة اثنوجرافيا كمصطلح للمرة الأولى في عام ١٧٧٢ عند المؤرخ الألماني **شلوزر** [٣] كمنهج لدراسة تاريخ الشعوب الخاص، ثم ظهر ذات المصطلح في المدرسة الفرنسية عام ١٧٨٧(فيليب، تولرا، و بيار، ٢٠٠٤: ٢٧).

وتعد الاثنوغرافيا أقدم فروع المعرفة في علم الأنثروبولوجيا، ويتكون مفهوم الاثنوجرافيا من جزئين، الجزء الأول هو Ethno ويعني شعب أو جنس، والجزء الثاني هو graphy ويعني وصف، أي أن المعني الكامل لمفهوم الاثنوغرافيا هو أنها وصف ثقافات وحياة الشعوب. ومصطلح أثنوجرافيا تم تطويره في الأصل في الأنثروبولوجيا لوصف "طرق المعيشة لمجموعة اجتماعية"، والأثنوجرافيا هي دراسة سلوك الأشخاص في المواقف الحياتية المستمرة التي تحدث بشكل طبيعي، مع التركيز على التفسير الثقافي للسلوك. وهدف الاثنوجرافي هو تقديم وصف وحساب تفسيري توضيحي لما يفعله الأشخاص في مجتمعاتهم والمحيط الاجتماعي المتواجدين فيه (مثل فصل دراسي أو حي أو مجتمع)، فإن نتيجة تفاعلاتهم والطريقة التي يفهمون بها ماذا يفعلون (المعنى الذي تحمله التفاعلات لهم) هو ما نطلق عليه أثنوجرافيا (WATSON-GEGEO, 1988, p. 575).

واتفق **جون اوجوب** [٤] مع التعريف السابق للأثنوجرافيا أنها أداة وطريقة لفهم أسلوب مجتمع ما وطريقته في الحياة، من خلال التعرف على أفكار أعضائه ومعتقداتهم وسلوكياتهم، وذلك من خلال ملاحظة ومشاركة الباحث لهؤلاء الأفراد في الأوضاع الطبيعية (Ogbu, 1996, pp. 371-377). وطبقا لتلك الرؤية عن معنى الأثنوجرافيا فإن الدراسة الاثنوجرافية هي دراسة تفاعلية، تتطلب الملاحظة والمعايشة والتسجيل لكل المعلومات كما تحدث في الواقع،

فيصف الباحث الواقع والأحداث طبقا للسياق الذي تحدث فيه، دون تدخل منه أو فرض رؤيته أو أيديولوجيته أو معتقداته.

وتعد الأثنوجرافيا أيضا علم دراسة الثقافات، ذلك المركب الذي يتشكل من كل من المعتقدات والمعرفة والفنون والأخلاق والقانون والعادات وأي مكتسبات يكتسبها الفرد كعضو في المجتمع، أي تسجيل المادة الثقافية من الميدان، بالإضافة الى وصف أوجه النشاط الثقافي من خلال دراسة الوثائق التاريخية (الجوهري، ٢٠٠٦: ٣١). وفي بريطانيا تعني الأثنوجرافيا البحوث الوصفية والتحليلية التي قام بها علماء الأنثروبولوجيا لدراسة الشعوب البدائية حول العالم دراسة ميدانية، على سبيل المثال دراسات **مالينوفسكي** و**راد كليف براون** و**مارجريت ميد،** ودرجت العادة على أن المقصود بالأثنوجرافيا وصف الأحداث، والمقصود بالإثنولجيا الدراسة المتعمقة وتحليل ومقارنة المجتمعات التقليدية البدائية بعد احتكاك طويل الأمد معها (فيليب، تولرا، و بيار، ٢٠٠٤: ٥٤). في حين تهتم الأنثروبولوجيا بالتحليل البنائي وتركيب المجتمعات البدائية.

ويشارك عالم الأثنوجرافيا علانية أو سرا في حياة الناس اليومية لفترة طويلة من الزمن، يراقب ما يحدث ويستمع إلى ما يقال ويطرح الأسئلة؛ ويجمع في الواقع كل البيانات المتاحة لإلقاء الضوء على القضايا التي تهمه. هذا النوع من الأثنوجرافيا التي توصف بأنها تقليدية، تعطي مركز الصدارة للفاعلين البشريين، بمعنى أن العالم من صنع الأفراد. ويتمثل دور الاثنوجرافي في مراقبة هذه الممارسات وتوثيقها وتحليلها (Hine C. , 1994, p. 3).

ومع التطور التكنولوجي الذي اجتاح العالم، ومع انتشار استخدام الإنترنت حتى تجاوز عدد مستخدمي شبكة الإنترنت ملياري مستخدم على مستوى العالم، وظهور مفاهيم جديدة مثل الفضاء الإلكتروني والجمهور الإلكتروني، ومع ظهور المنصات الرقمية الجديدة وشبكات التواصل الاجتماعي المختلفة، والتي تتغير فتؤدي الى تغير العالم وتغير الأفراد مستخدمي تلك الشبكات والمنصات، اصبح هناك مدى أخر للتواصل والتفاعل الإنساني الذي تغيرت طبيعته، فحلت وسائل الاتصال الإلكترونية محل البريد والهاتف ولقاءات الوجه بالوجه، واصبح من السهل وصول مستخدمي تلك الشبكات والمنصات بعضهم لبعض دون اعتبار لعاملي الزمان والمكان. وقد أسهمت تقنية الاتصالات الرقمية وشبكات التواصل الاجتماعي في إعادة تشكيل الاقتصاد والثقافة المعاصرة على مستوى العالم، وأظهرت مستويات جديدة من التفاعل العالمي، وأصبح العالم

محكوما بسرعة انتقال المعلومات والمعرفة، التي تعبر الحدود الإقليمية للدول بواسطة شبكات الإنترنت والمنصات الرقمية وشبكات التواصل الاجتماعي. ويشارك مليارات الأفراد المنضمين إلى شبكات الإنترنت في عالم معقد لا يعكس تجاربهم المعيشية ويكشف عنها فحسب، بل يمثل أيضًا بحد ذاته ظاهرة اجتماعية فريدة. ويمكن أن تساعدنا الأثنوجرافيا في فهم هذا العالم. يمكن أن تساعدنا على فهم السياقات المختلفة التي تجعل ذلك ممكنًا، والأشكال الاجتماعية الجديدة التي تطورها والأشكال القديمة التي تحل محلها (Kozinets, 2010, p. 1).

ويواجه اليوم العديد من الباحثين الاثنوجرافيين التقليديين عقبات في إجراء البحوث الميدانية بسبب أزمة الصحة العالمية الناجمة عن COVID-19، وربما تمتد تلك العقبات الى اجل غير مسمى بسبب القيود المحلية أو الوطنية أو الدولية على الحدود. ولا يزال بعض الباحثين في هذا المجال غير قادرين على إجراء أبحاثهم بسبب لوائح السلامة التي تفرضها الدول، وأصبح عدد غير قليل من الباحثين غير قادرين على الوصول إلى ميدان الدراسة الاثنوجرافية التقليدية، فإن الطبيعة المعدية لـ COVID-19 تشكل تهديدًا كبيرًا لهم ولمحاوريهم (Ghosh, 2020, p. 2).

إن التحدي الذي يواجه العديد من الباحثين الآن هو إجراء أبحاثهم الأكاديمية، على الرغم من عدم قدرتهم على الوصول إلى "مجال وميدان البحث" بشكل منتظم. نظرًا لأن الوباء يعيق خطط عملهم الميداني، فإن احتمالية استمرار البحث الاثنوجرافي التقليدي يبدو غير مؤكد. ويعتقد عدد متزايد من الخبراء والمراقبين الطبيين أننا قد لا نعود أبدًا إلى الوضع "الطبيعي"، مما دفع العديد من علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى الإشارة إلى أن العمل الميداني "التقليدي" طويل الأمد قد يصبح مستحيلًا في السنوات القادمة (Günel, Varma, & Watanabe, 2020, p. 1). لذلك يقوم الباحثون بابتكار أساليب وطرق منهجية جديدة لمواصلة أبحاثهم الاثنوجرافية، في سبيل التكيف والتوافق مع تلك الأزمة الصحية العالمية، وإدارتها بشكل لا يعيق استكمال أبحاثهم في سياق الوضع العالمي الطبيعي الجديد (Miller, 2018). وتعد الأثنوجرافيا الرقمية أو الافتراضية أحد اهم تلك الأساليب والطرق المنهجية، وتعد بديلة للأثنوجرافيا التقليدية والتي فرضتها الأحوال العالمية الجديدة على عالم البحث العلمي.

ويطرح البحث تساؤلا رئيسيا هو " ما الأسس المنهجية للمدخل الاثنوجرافي الرقمي"، وبناء عليه يتفرع منه عدة تساؤلات فرعية هي:

١ – ما مراحل تطور الأثنوجرافيا الافتراضية؟

٢ – ما أنماط الممارسات المنهجية للأثنوجرافيا الافتراضية؟

٣ – طبيعة مهارات الأثنوجرافيا الافتراضية ومبادئها؟

٤ – ما أدوات البحث المستخدمة في الأثنوجرافيا الافتراضية؟

٥ – الكشف عن انعكاس الأثنوجرافيا الافتراضية على مفهوم الممارسة؟

٦ – ما المفاهيم الخاطئة الشائعة حول المنهج الاثنوجرافي؟

٧ – ما مستقبل البحث الاثنوجرافي؟

وبناء على ما سبق يهدف البحث الى إلقاء الضوء على المنهج الاثنوجرافي الافتراضي، الذي انبثق عن المنهج الاثنوجرافي التقليدي لمواكبة التطور التكنولوجي وتحليل التفاعل مع المحتوى الإلكتروني المعروض عبر الفضاء الرقمي.

١– مفهوم الأثنوجرافيا الافتراضية، ومراحل تطورها

الأثنوجرافيا الافتراضية هي عملية تفاعلية تتيح للباحث القدرة على إجراء الملاحظات والمشاركة في الثقافات المتعددة في العالم الافتراضي بشكل غير مباشر. ويتم استخدام الأثنوجرافيا الافتراضية لفهم سلوكيات المشاركين والمساهمين في تلك الثقافات بأفضل شكل ممكن، كما أنها تهتم بالموضوعات التي تنتجها هذه الثقافات والطرق التي تشارك بها هذه الثقافات وتستخدمها وتكررها. ويعد العامل الأساسي في الأثنوجرافيا الافتراضية هو عدم اعتبار الحياة الرقمية (الافتراضية) منفصلة عن الحياة الواقعية، لأن كلاهما ينتميان إلى نفس الحياة ولا يمكن فهمهما إلا بشكل كلي عند التعامل معها على أنهما حياة واحدة (HUBBARD, 2011).

وبينما تشمل الأثنوجرافيا التقليدية الحياة وسط أفراد جماعة ثقافية معينة في أثناء تطبيق الدراسة، تطبق الأثنوجرافيا الافتراضية هذا الأسلوب على الجماعات الثقافية الرقمية (ريد، ٢٠١٨: ٤٣). ويبدو أن احدى السمات المشتركة بين الأثنوجرافيا التقليدية والأثنوجرافيا الافتراضية، هي أن الباحث الاثنوجرافي يصبح مندمجا في مكان الدراسة، ويواجه السكان

الأصليين أو المستخدمين وجها لوجه أو بشكل مباشر، بحيث يتم اكتساب فهم عميق لممارسات ذلك المكان (Hine C. , 1994, p. 2).

وتعد الأثنوجرافيا الافتراضية منهج لدراسة الحياة اليومية التي يعيشها مجموعات من الأشخاص ودراسة ثقافات العوالم الافتراضية. وما يثير اهتمام الاثنوجرافيين ليس كل ما هو استثنائي بل كل ما هو عادي. ويهدف الاثنوجرافيين الى دراسة العوالم الافتراضية كأماكن صالحة للممارسات الثقافية، وفهم كيف تتشابه وكيف تختلف عن الأشكال الأخرى للثقافة (BoEllstorff, 2012, p. 22). ويتم ذلك من خلال الانخراط في العمل الميداني والانغماس في الثقافة التي يكونون بصدد دراستها، حتى عندما يكون ذلك الانغماس والانخراط بشكل رمزي.

وتم إطلاق مفهوم الإثنوغرافيا الافتراضية من قبل العديد من الباحثين. وأحد المصطلحات التي أصبحت شائعة بشكل خاص صاغها **روبرت كوزينيتس Kozinets**[5]، حيث قام بدمج الكلمتين "الإنترنت" و"الإثنوجرافيا" للتوصل إلى "نتنوغرافيا"، هذا المصطلح الذي يعزز ويطور وجهة نظر دقيقة للتفاعل الاجتماعي عبر الإنترنت. وتعددت المصطلحات الأخرى المستخدمة لوصف البحث الاثنوجرافي عبر الإنترنت مثل الإثنوجرافيا الرقمية والإثنوجرافيا عبر الإنترنت والإثنوجرافيا الإلكترونية والأثنوجرافيا الافتراضية (Kozinets, 2010, pp. 3-4). وأضاف **كوزينيتس أن** النتنوغرافيا تهتم بدارسة بنيات المجتمع عبر الإنترنت وثقافة الإنترنت أو "الثقافة الإلكترونية" بالإضافة الى الإشارة الى الظواهر الاجتماعية عبر الإنترنت، حيث أصبحت الثقافة والمجتمع مفاهيم غير مستقرة بشكل متزايد في الأنثروبولوجيا وغير مستقرة بشكل خاص (Kozinets, 2010, p. 6). وأصبحت العلاقات الاجتماعية مثل المجتمع والثقافة اقل استقرارا الى حد كبير، كما تزايدت نسبة أشكال التواصل الاجتماعي المختلفة في عالم تتدفق فيه المشاهد الثقافية التي نالها جزء من التغيير، وأصبحت لا يمكن التنبؤ بها مثل أي وقت مضى، بالإضافة الى تسارع سيولة الثقافة والتفاعل بفعل التكنولوجيا والرأسمالية وفصل الأشخاص على مستوى العالم وربطهم ببعضهم البعض، ستكون مهمة الاثنوغرافيا والنتنوغرافيا هي تصور الأفراد الذين لديهم الحرية في اختيار مجموعة من الهويات والمواقف الموضوعية، للتأكيد على الهوية الفاعلية على البنية الاجتماعية (Kozinets, 2010, p. 12).

إن الهويات الثقافية والاجتماعية على شبكة الإنترنت تبنى من خلال الأشخاص وبدرجات متفاوتة. ان ما يقوم شخص ما بنشره على أي من التطبيقات على شبكة الإنترنت على سبيل المثال تطبيق اليوتيوب، يشارك بشكل ما في ثقافة اليوتيوب، ويمكننا تحليل محتوى المنشور وعلاقته بالمنشورات الأخرى، والتعرف على سلوك التفكير المصاحب للمنشور من خلال الكلمات الرئيسية به والرد على التعليقات والمشاركات الخاصة بالمستخدمين الأخرين. وقدم **كوزينتيس** تعريفا للاثنوجرافيا الافتراضية ويصفها بأنها " أثنوجرافيا يتم إجراؤها على الإنترنت، وهي منهجية بحثية نوعية وتفسيرية، تكيف تقنيات البحث الاثنوجرافية التقليدية في الأنثروبولوجيا مع دراسة الثقافات والمجتمعات عبر الإنترنت التي تشكلت من خلال الاتصالات بوساطة الكمبيوتر" (Kozinets, 2006, p. 135).

وتتخذ الأثنوجرافيا الافتراضية أحد شكلين، يكون الباحثون في الشكل الأول مستترين ويقومون بملاحظة الأنشطة على شبكة الإنترنت بشكل خفي دون الإعلان عن أنفسهم، من خلال زياراتهم واستخدامهم للفضاءات الإلكترونية (شبكات التواصل الاجتماعي والتطبيقات المختلفة)، أما الشكل الأخر للأثنوجرافيا الافتراضية فيكون من خلال الانضمام الى غرف الدردشة أو الصفحات أو المجموعات العامة أو المغلقة على شبكات التواصل الاجتماعي، بهدف دراسة تلك المجموعات من الداخل وتدوين الملاحظات وتحليلها (ريد، ٢٠١٨: ٤٤). ويحاول الباحث تحليل مستخدمي تلك الشبكات وفهم ما يحدث لهم وهم يستخدمون تلك الفضاءات الإلكترونية والعوالم الافتراضية، وبالمعنى الأقرب معرفة ما يفعلونه، وبالمعنى الأبعد كشف ما يفعل بهم. تعتبر شبكة الإنترنت مزيجا معقدا من التقنيات والمهام اللامتناهية ما بين الأنشطة التجارية وأنشطة العمل وأنشطة قضاء وقت الفراغ، وتتراوح تلك المهام ما بين المراقبة والفوضى. والأنترنت عبارة عن شبكة من أجهزة الكمبيوتر المتصلة ببعضها البعض والتي تربط بين الأشخاص على مستوى العالم.

ويوفر الإنترنت أدوات ومصادر وبيئة البحث الاثنوجرافي لإجراء عمليات وصف وتحليل السلوكيات. وخلال السنوات العشرين الأخيرة تم نشر العديد من الأبحاث والمقالات والكتب حول الأثنوجرافيا على شبكة الإنترنت كمنهج بالإضافة الى استحداث العديد من المصطلحات المستخدمة في البحث. وبرغم أن الأثنوجرافيا تستمد أصولها المنهجية من الأنثروبولوجيا، إلا أنها

انتشرت لاحقا على نطاق واسع عبر العديد من العلوم الاجتماعية، واكتسبت الأثنوجرافيا الافتراضية تأثيرات خاصة من علم الاجتماع وأصبحت مجالا معترفا به يجمع بين الأهداف الإنسانية وعلوم الكمبيوتر (Haverinen, 2015, p. 80).

كتب عالم الاجتماع **باري ويلمان Barry Wellman** عن تطور دراسات الإنترنت في أوائل العقد الأول من القرن الحالي وما بعده. ولاحظ **ويلمان** أنه كانت هناك أربع موجات من التطور خلال العقود الماضية هم (Haverinen, 2015, pp. 80-81):

- **المرحلة الأولى:**

وفقًا **لويلمان** في أواخر فترة الثمانينيات وأوائل التسعينيات (تقريبًا ١٩٨٩-١٩٩٤) ركز الباحثون بشكل أساسي على تحليل العوالم الافتراضية القائمة على النص المبكر (المعروفة باسم MOOs و1 MUDs) والبرامج التعاونية (مثل البرامج الجماعية، برنامج مصمم لتسهيل العمل الجماعي الذي يقوم به عدد من المستخدمين المختلفين). حيث كانت تقنية الإنترنت قائمة على النص، وتم تطوير المزيد من التطبيقات والمتصفحات المرئية في السنوات الأولى من التسعينيات، وخلال تلك الفترة الزمنية كان الباحثون مهتمون بشكل خاص بصياغة المجتمعات (الثقافية والشركات على حد سواء)، وتوزيع المعلومات التي يتم توصيلها وتمكينها بواسطة هذا النموذج الإعلامي الجديد.

وفي عام ١٩٩١ قام **مايكل بينيديكت Michael Benedikt** استكشف بتفصيل كبير فكرة الفضاء والمكان والمكانية على الإنترنت، وكيف تصبح المفاهيم المجردة أكثر حضورا وتأثيرا في أذهان المستخدمين ووعيهم. وأصبح مفهوم الجسد موضوعًا شائعًا على وجه الخصوص، حيث انتقد العديد من الأشخاص شبكة الإنترنت في ذلك الوقت لكونه مخادعًا، حيث لم يكن أحد يعرف من أنت حقًا، واستندت عالمة الاجتماع **شير ري توركل ry Turkle Sher–** إلى عملها الحياة على الشاشة: الهوية في عصر الإنترنت (1994) على هذه الفرضية، حيث قامت بتحليل كيف أثرت الحياة على الشاشة على مفاهيم مثل الهوية واللعب بالهوية والمجتمع والجنس تذكير أو تأنيث. وفي نفس العام نشر عالم الأنثروبولوجيا **أرتورو**

إسكوبار Arturo Escobar أيضًا مقالته بعنوان " ملاحظات حول أنثروبولوجيا الثقافة الإلكترونية " (١٩٩٤)، والتي طرحت العديد من الأسئلة المهمة للغاية ذات الصلة حول دراسة الثقافات الإلكترونية، على سبيل المثال: كيف يمكن دراسة هذه الممارسات والمجالات أثنوجرافياً في بيئات اجتماعية وإقليمية وعرقية مختلفة؟ ما هي المفاهيم والأساليب الأنثروبولوجية الراسخة التي ستكون مناسبة لدراسة الثقافة السيبرانية؟ ما هي المفاهيم والأساليب الأنثروبولوجية الراسخة التي ستكون مناسبة لدراسة الثقافة السيبرانية؟ كيف سوف تتحول مفاهيم المجتمع والعمل الميداني والجسد والطبيعة والرؤية والموضوع والهوية والكتابة بواسطة التقنيات الجديدة؟

- **المرحلة الثانية**

من عام ١٩٩٥ حتى مطلع الألفية في عام ٢٠٠٠، أصبح الاستخدام الخاص لشبكة الإنترنت تجاريًا وشائعًا بشكل متزايد. وركزت الدراسات على المستخدمين، كيف ولماذا تم استخدام الإنترنت في أماكن مختلفة؟ وحاولت توثيق طبيعة الإنترنت (ما هو الإنترنت، حقًا؟). وقدمت بعض الدراسات بعضًا من التحليل الأوسع للوقت من حيث الكيفية التي يجب أن تخلق بها الأثنوجرافيا فهمًا للاستخدام المتزايد للإنترنت.

- **المرحلة الثالثة:**

كانت السنوات من ٢٠٠٠ حتى ٢٠٠٦ بمثابة السنوات الأولى لتطبيقات الوسائط الاجتماعية، والترويج المتزايد لبيئات الألعاب متعددة المستخدمين عبر الإنترنت. ولاحظ **ويلمان** أن نماذج البحث قد تحولت "من توثيق البيانات إلى التحليل" منذ أن "أصبح الويب مفيدًا للجماهير". وأدت المخاوف الجديدة بشأن محو الأمية عبر الإنترنت و"الفجوة الرقمية" بين الأجيال إلى ظهور مصطلحات مثل: المهاجرين الرقميين والمواطنين الرقميين، والتي تشير إما إلى الأشخاص الذين ولدوا مع الويب أو الأشخاص الذين بدأوا في استخدام " طريقة المعلومات

السريعة " خلال مرحلة البلوغ. خلال هذه الفترة الزمنية بدأ الباحثون أيضًا في الإشارة إلى أثنوجرافيا الإنترنت على أنها رقمية، في الوقت نفسه تم صياغة مصطلح الأثنوجرافيا الافتراضية، مع التركيز على البحث في الظواهر والثقافات في البيئات عبر الإنترنت، وفي موقع بديل للبيئات " الحقيقية " والتي تعني "ما حدث على الإنترنت".

- **المرحلة الرابعة:**

في الفترة من ٢٠٠٧ الى عام ٢٠١٥ توسعت الدراسات الأكاديمية لتشمل التقنيات الجديدة الناشئة، مثل تقنية الهواتف الذكية والأجهزة اللوحية والتي تطورت بقفزات عملاقة، بالإضافة إلى تطبيقات الوسائط الاجتماعية وحتى البيانات الضخمة. وتشير مصطلحات مثل الأثنوجرافيا الإلكترونية إلى نماذج من فترة التسعينيات، ويستخدم العلماء في هذا المجال الآن إما الأثنوجرافيا عبر الإنترنت أو الافتراضية أو الرقمية للإشارة إلى مختلف المواقع الميدانية والأساليب النظرية. وعلى سبيل المثال تم نشر المصطلح الافتراضي في الغالب في بيئات الألعاب عبر الإنترنت والعوالم الافتراضية المشتركة، حيث يشير مصطلح " الافتراضية " إلى الواقع المعزز ولعب الأدوار والهوية والذوات المتخيلة والمساحات. ومن ناحية أخرى تم استخدام مصطلح الأثنوجرافيا الرقمية في سياقات أخرى، حيث يقوم الباحثون بتحليل كيفية تأثير الظواهر الغير متصلة بالإنترنت بسهولة في استخدام الظواهر عبر الإنترنت، كما هو الحال في الحركات السياسية. وتم تطبيق المصطلح عبر الإنترنت في السياقات حيث يقوم الباحثون بتحليل البيئات عبر الإنترنت، مثل تطبيقات الوسائط الاجتماعية ومنتديات المناقشة والموارد الإعلامية وغيرها من المواد عبر الإنترنت، من خلال نهج غني بالسياق وبهدف تحليل ماهية الشيء ولماذا يحدث عبر الاتصال بشبكة الإنترنت.

٢ – أنماط الممارسات المنهجية للأثنوجرافيا الافتراضية

ظهر علم الاجتماع الرقمي مؤخرًا باعتباره تخصصًا فرعيًا ليس فقط للتركيز على التقنيات الجديدة التي تطورت منذ مطلع القرن الحادي والعشرين، ولكن شمل أيضًا تطوير النهج النظري والمنهجي الذي يتضمن هذا النقد الانعكاسي. ولا يقتصر علم الاجتماع الرقمي على قيام علماء الاجتماع بالبحث والتنظير حول كيفية استخدام الآخرين للتقنيات الرقمية أو التركيز على البيانات الرقمية الناتجة عن هذا الاستخدام. إن علم الاجتماع الرقمي له آثار أوسع بكثير من مجرد دراسة التقنيات الرقمية، مما يثير تساؤلات حول ممارسة علم الاجتماع والبحث الاجتماعي نفسه. ويتضمن أيضًا بحثًا حول كيفية استخدام علماء الاجتماع أنفسهم للوسائط الاجتماعية وغيرها من الوسائط الرقمية كجزء من عملهم، بدءاً من الاهتمامات والأساليب النظرية إلى المشاركة من قبل علماء الاجتماع الذين يكتبون على الوسائط الرقمية، وغيرهم ممن يعلقون على القضايا ذات الصلة مثل مستقبل علم الاجتماع كنظام، وأنواع طرق البحث التي ينبغي استخدامها وكيف ينبغي تصورها، والطرق التي برزت بها قضايا القياس والقيمة في المجتمعات المعاصرة، وظهور اقتصاد المعرفة والتكوينات السياسية الجديدة وعلاقات القوة الواضحة. في حين أنه لا يجوز لجميع هؤلاء العلماء تصنيف أنفسهم على أنهم علماء اجتماع رقمي محدد، إلا أن عملهم قد ساهم بشكل كبير في الاتجاه المميز للتخصص الفرعي كما حدث مؤخرًا (Lupton, 2015 , p. 15).

وتحتوي الاثنوغرافيا على تصنيفًا رباعيًا يلخص الممارسات المنهجية لعلم الاجتماع الرقمي كالتالي (Lupton, 2015 , pp. 15-16):

١,٢ – الممارسة الرقمية الاحترافية: استخدام الأدوات الرقمية كجزء من الممارسة الاجتماعية لبناء الشبكات، وإنشاء ملف تعريف عبر الإنترنت، ونشر البحوث ومشاركتها وإرشاد الطلاب.

٢,٢– تحليلات استخدام التكنولوجيا الرقمية: البحث في الطرق التي يوثق بها استخدام الناس للتقنيات الرقمية إحساسهم بأنفسهم وعلاقاتهم الاجتماعية، ودور الوسائط الرقمية في إنشاء أو إعادة إنتاج المؤسسات الاجتماعية والهياكل الاجتماعية.

٣,٢– تحليل البيانات الرقمية: استخدام البيانات الرقمية التي تحدث بشكل طبيعي للبحث الاجتماعي، سواء كانت كمية أو نوعية.

٤,٢– علم الاجتماع الرقمي النقدي: إجراء تحليل انعكاسي للتكنولوجيات الرقمية المستنيرة من خلال النظرية الاجتماعية والثقافية.

٣ – مهارات الأثنوجرافيا الافتراضية ومبادئها

لا يقتصر منهج الأثنوجرافيا الافتراضية على كيفية استخدام الأفراد لشبكة الإنترنت والمنصات الرقمية وشبكات التواصل الاجتماعي، وإنما يتجاوز ذلك الى كيفية إعطاء ممارسات الأفراد على تلك المنصات والشبكات معنى في سياقاتهم المحلية. ويشترط منهج الأثنوجرافيا الافتراضية توافر بعض المهارات منها ما يلي (Hine C. M., 2001, pp. 63-64):

١,٣ – على الباحث الاثنوجرافي ضرورة التواجد المستمر في مجال الميدان الافتراضي موضوع البحث.

٢,٣ – الالتزام بملاحظة يوميات المستخدمين.

٣,٣– اعتبار شبكة الإنترنت مكانا ثقافيا قابل للملاحظة.

٤,٣ – اعتبار كل أشكال التفاعلات الاثنولوجية ممكنة.

٥,٣ – اعتبار الأثنوجرافيا الافتراضية نشاط يومي للباحث مثل المستخدمين.

٦,٣ – يجب أن يكون الفضاء الإلكتروني معروفا كموقع للتفاعل الإلكتروني

- **قواعد وأسس الأثنوجرافيا الافتراضية**

تم تحديد عدة قواعد وأسس أساسية للإجراءات المنهجية في الأثنوجرافيا الافتراضية، وقد طورت تلك المبادئ بناء على الخبرات البحثية، إلا انه قد لا يتم الالتزام بها جميعا في كل الأبحاث والدراسات الاثنوجرافية الافتراضية، ولكن يتم الاستعانة بها وتكييفها وفقا لسياق كل مشروع بحثي جديد. ومن الصعب دراسة الأثنوجرافيا الافتراضية دون تناول تلك المبادئ على الإطلاق وهي (Pink, Horst, Postill, Hjorth, Lewis, & Tacchi, 2016, pp. 26-32):

- **التعددية**

هناك أكثر من طريقة للتفاعل مع البيانات الافتراضية، دائمًا ما يكون البحث الاثنوجرافي الافتراضي فريدًا بالنسبة لسؤال البحث والتحديات التي يستجيب لها. وغالبًا ما يسترشد بأطر نظرية محددة مرتبطة بالتخصصات الأكاديمية، وكذلك باحتياجات واهتمامات الباحث والمشاركين. هذه التأثيرات وتأثيرها تجعل كل مشروع بحثي وطريقة صياغته تتطور بطرق معينة.

- **عدم التمركز الافتراضي**

إن الوسائط الرقمية الافتراضية تشكل جزءًا من العلاقات الإنسانية، ولفهم كيف تعد الوسائط الافتراضية جزءًا من حياة الأشخاص اليومية، يحتاج الباحث الاثنوجرافي أيضًا إلى فهم الجوانب الأخرى لعوالمهم وحياتهم. ولذلك لا يمكن أن تكون العلاقات افتراضية بشكل بحت. لذلك نحن بحاجة إلى النظر إلى ما وراء العلاقات الافتراضية، ليصل الباحث الاثنوجرافي الى فهم أعمق وأكثر من مجرد دور الوسائط الرقمية والافتراضية في حياة الأشخاص لتحقيق أهداف بحثه.

- **الانفتاح**

يعد البحث الاثنوجرافي الافتراضي بحث منفتحا ومرن التصميم، والاثنوجرافي الافتراضية ليست "طريقة" بحث محدودة كما أنها ليست وحدة نشاط أو تقنية لها بداية أو نهاية. ويعد انفتاح ومرونة الأبحاث الاثنوجرافية الرقمية، إشارة الى أن تلك الأبحاث تتسم أيضا بأنها تعاونية. فالباحث الاثنوجرافي الافتراضي يصنع المعرفة وطرق المعرفة مع الأخرين، وهو ليس بباحث وحيد وإنما قادر على العمل في سياق تعاوني مشترك لإنتاج المعرفة.

- **الانعكاسية**

تتضمن الأثنوجرافيا الافتراضية ممارسة انعكاسية. ويمكن تعريف الانعكاسية على أنها الطرق التي ينتج بها علماء الأثنوجرافيا المعرفة من خلال لقاءاتهم مع أشخاص وأشياء أخرى. وهي نهج يتجاوز فكرة "التحيز" البسيطة ويتفاعل مع ذاتية لقاء البحث، والطبيعة التفسيرية للكتابة

الاثنوجرافية كطريق إيجابي وإبداعي، يمكن من خلاله إنتاج المعرفة أو طرق التعرف على الأشخاص الآخرين وحياتهم وخبراتهم وبيئاتهم. وتعتبر الممارسة الانعكاسية أيضًا ممارسة أخلاقية من حيث أنها تمكن الباحثين من الاعتراف بالطرق التعاونية التي يتم من خلالها تكوين المعرفة في العملية الاثنوجرافية.

وفي سياق الأثنوجرافيا الافتراضية لا تأخذ الانعكاسية بالضرورة شكلاً مختلفًا عما هي عليه في الأثنوجرافيا التقليدية. ومع ذلك قد نفكر في السمة المميزة فيما يتعلق بالطرق التي ينظّر بها علماء الأثنوجرافيا الافتراضية ويواجهون العالم باعتباره رقميًا وافتراضيا. وتعد البيئة المادية الحسية جزء من الطرق التي قد يتفاعل معها علماء الأثنوجرافيا الافتراضية، وهم معنيون بطرح الأسئلة من خلال منظور انعكاسي حول كيفية إنتاج المعرفة.

- **الغير تقليدية**

تتطلب الأثنوجرافيا الافتراضية الانتباه إلى أشكال بديلة للتواصل، وتعمل على تطور الطرق والأدوات المنهجية كتقنيات بحثية لإنتاج المعرفة المتعلقة بالبيئة أو الحياة اليومية الافتراضية، المتوقعة أو الغير متوقعة من خلال مناهج بحثية أكثر رسمية وبالتالي تكون اقل استكشافية وتعاونية.

وتطرح الأثنوجرافيا الافتراضية ثلاثة قضايا منهجية هم:

- أين يمكن إجراء البحث الاثنوجرافي وتحديد مكان جمع البيانات؟
- كيفية إجراء جمع البيانات؟
- من المستخدم المشارك ومدى درايته بأهداف البحث؟

٤ – أدوات البحث المستخدمة في الأثنوجرافيا الافتراضية

إذا كان يشترط على الباحث الاثنوجرافي في الواقع الانخراط والانغماس في مجتمع الدراسة والبحث كوسيلة من وسائل البحث في الأثنوجرافيا التقليدية، فلابد للباحث الاثنوجرافي أيضا الانغماس في دراسة العالم الافتراضي والفضاء الإلكتروني كمجتمع للدراسة كوسيلة من

وسائل البحث في الأثنوجرافيا الافتراضية، بالإضافة الى إجادته استخدام استعمال مناهج البحث الإلكترونية والتعرف على الجديد في العمل المنهجي. وعند التفكير في كيفية إجراء البحث الاثنوجرافي على شبكة الإنترنت، يجب على الباحث بالطبع أن يفكر فيما هي أهداف البحث وما هي أسئلة البحث وأين يمكن العثور على الإجابات. ويعتبر السياق هو الكلمة الأساسية في هذه الحالة، وتعد الإشكالية التي يطرحها منهج العمل بالفضاء الإلكتروني إشكالية ترتد في أصلها الى طبيعة المعطيات التي يتعامل معها الباحث الاثنوجرافي، كذلك طبيعة مجتمع الدراسة وميدان البحث الذي يناوله، ولذلك فإن تحديد الأدوات المنهجية هو امر يستلزمه طبيعة الدراسة بالضرورة. أي أن قواعد المنهج الاثنوجرافي تظل كما هي، لكن ممارسة الأثنوجرافيا الافتراضية تحتم استخدام أدوات بحثية مختلفة. مما يعني تكييف وتحديد قواعد المنهج الاثنوجرافي بما يتناسب مع مقتضيات العمل الإلكتروني لجعلها تتوافق مع مقتضيات العالم والمجتمع الافتراضي.

وتتمثل أدوات الدراسة الاثنوجرافية الافتراضية، وطرق جمع البيانات الاثنوجرافية الرقمية فيما يلي (BoEllstorff, 2012, p. 113):

١,٤ – حفظ وتحليل سجلات الدردشة مع المستخدمين المشاركين

٢,٤ – حفظ وتحليل لقطات الشاشة

٣,٤ – تسجيل الفيديو

٤,٤ – التسجيل الصوتي

٥,٤ – الملاحظة بالمشاركة أو غير المشاركة

٦,٤ – جمع البيانات من المنتديات والمدونات ومواقع المراسلة الفورية

٧,٤ – تحليل البيانات الرقمية: تحليل البريد الإلكتروني – تحليل الصور والرسوم ولغة الجسد ونبرة الصوت وتعبيرات الوجه – تحليل استخدام المشاركين لكاميرات الويب أو الفيديو

٨,٤ – جمع البيانات التاريخية

وتختلف الأدوات باختلاف طبيعة البيانات التي يهتم الاثنوجرافي بالحصول عليها واختلاف البيئة الإلكترونية التي يعمل من خلالها الباحث الاثنوجرافي، سواء كانت مواقع التواصل الاجتماعي أو المدونات أو المنتديات أو الصفحات العامة أو المجموعات العامة أو المغلقة أو المواقع الإلكترونية.

ويمكن للباحث الاثنوجرافي الاختيار من بين العديد من التطبيقات التي تساعده في تجميع البيانات النوعية من الإنترنت، حيث تلعب الملاحظات الميدانية دورًا مهمًا على سبيل المثال يمكن تسجيل نشاط الشخص على شاشة الكمبيوتر باستخدام تطبيقات فيديو لتسجيل الشاشة، والتي يمكن بعد ذلك ملاحظتها وتحليلها لاحقًا. ويمكن استخدام هذه التطبيقات من قبل العلماء الإثنوجرافين أنفسهم أو تثبيتها على أجهزة الكمبيوتر الخاصة بالملاحظين. وهناك مقياس آخر شائع لجمع البيانات وهو أخذ لقطات شاشة (كاملة أو جزء من الشاشة)، والتي تتعلق مباشرة بالتقاط الصور في السياقات غير المتصلة بالإنترنت (Haverinen, 2015, pp. 84 - 85). ويجب أن يكون الباحث الاثنوجرافي على دراية بالسياقات المتعددة والسياقات الفرعية، وخاصة المعاني الخفية للتواصل عبر الكمبيوتر والثقافات عبر الإنترنت. كما يجب أن يمتاز الباحث الاثنوجرافي بقدرته على إنتاج رؤى حول الحياة اليومية والعادية، والتي يفشل الأشخاص العاديون في ملاحظتها على أنها ذات صلة، ففي العالم الافتراضي يمكن أن يكون الشيء العادي غير عادي في الواقع.

وأكد باحثو العالم الافتراضي على انه من الضروري المشاركة في الثقافة (الثقافات) قيد الدراسة، وأنه بدون جزء المشاركة لا توجد أثنوجرافيا افتراضية. بالإضافة إلى أهمية فهم طبيعة اللغة على لوحة المناقشة، وكيفية التواصل بكفاءة باستخدام مراجع من الثقافة الشعبية وشعارات وأفكار الإنترنت، من أجل فهم كل من هذه التعبيرات اجتماعياً وثقافيا وحرفيا (Haverinen, 2015, pp. 84-85). وفي بعض الحالات قد يكون من المناسب استخدام الأثنوجرافيا الذاتية كطريقة لفهم التجربة عبر الإنترنت. وتعد الأثنوجرافيا الذاتية أداة تحليلية أعمق يمكن للباحثين استخدامها لتحديد مواقعهم وخبراتهم وأفكارهم، وهي أداة يمكن استخدامها خاصة إذا كان موضوع البحث حساسًا. ويمكن استخدام تقنية الأثنوجرافيا الذاتية للتعبير عن جوانب الظاهرة وفهمها بشكل قاطع، ولكن أيضًا لدراسة الموضوعات المعقدة والصعبة من الناحية الأخلاقية مثل الفجيعة والألم والمرض، والاكتئاب أو الاعتداء الجسدي (Haverinen, 2015, p. 85).

ويعد توثيق ملاحظة المشاركين أو أي نوع من أنواع المراقبة مهمًا بشكل خاص في البيئات الرقمية، نظرًا لأن سرعة وثراء المحتوى قد يكون من الصعب تذكره بعد ذلك. ويعد التقاط

فيديو على الشاشة مفيد للغاية لاسيما في المقابلات التي يتم إجرائها في العالم الافتراضي المشترك. ويعد التقاط فيديو الشاشة تطبيقًا يسجل كل ما يحدث على شاشة الكمبيوتر، ويمكن عرضه وتحريره كأي مادة فيديو. ويمكن أيضًا لعالم الأثنوجرافيا استخدام مدونة عامة لتدوين الملاحظات الميدانية. يمكن عرضها مع الملاحظين واستخدامها لمتابعة العمل الميداني وعمليات التفكير للباحث. وتتوفر تطبيقات أخرى على كل من أجهزة الكمبيوتر المكتبية وتقنيات الهاتف المحمول، حيث يمكن للباحث تخزين الصور الفوتوغرافية والملاحظات غير الرسمية والملفات الفنية عبر الإنترنت ولقطات الشاشة والمواد الرقمية الأخرى لمزيد من البيانات (Haverinen, 2015, p. 85).

٥ – انعكاس الأثنوجرافيا الافتراضية على مفهوم الممارسة

ظهرت دراسة الممارسات من خلال الاهتمام بكيفية تشكيل الأفعال والعادات البشرية والحفاظ عليها بمرور الوقت والطرق التي تؤثر بها هذه العادات في العالم. واهتم العلماء المهتمون بالممارسات بفهم العلاقة بين الأفعال البشرية والقواعد والهياكل والعمليات التي تدعم ما يقوله الناس ويفعلونه. وكانت هناك مجموعة من الأساليب النظرية المرتبطة بنموذج الممارسة، ويمكن تقسيمها عمومًا إلى جيلين: يتضمن الجيل الأول العمل المبكر للمنظرين الاجتماعيين مثل **بيير بورديو** و**ميشيل دي سيرتو**. يتضمن الجيل الثاني أعمال منظري الممارسة الاجتماعية.

لقد مثل **ثيودور شاتزكي** و**أندرياس ريكويتز** (Pink, Horst, Postill, Hjorth, Lewis, & Tacchi, 2016, p. 66). وكان لعلماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية أيضًا اهتمام طويل المدى بمفهوم الممارسة أو الممارسات، كطريقة لفهم الأنشطة التي يتم من خلالها عيش الحياة. وهكذا عبر علم الاجتماع والدراسات الثقافية والأنثروبولوجيا وكذلك في دراسات الفلسفة والعلوم والتكنولوجيا، فإن الطرق التي تم بها تعريف مفهوم الممارسة واستخدامها قد تم تغييرها بشكل مختلف.

وظهر في الآونة الأخيرة نهج يشار إليه غالبًا باسم "نظرية الممارسة الاجتماعية" وأصبح يؤثر على الدراسات الإعلامية. وانبثقت الممارسة كما أشير إليها من الاهتمام المتزايد عبر العلوم الإنسانية والاجتماعية بكيفية تشكل العالم من خلال الإجراءات والممارسات اليومية. ودرس

الباحثون أنشطة تتراوح بين ممارسات المستهلك مثل الأكل والتسوق واللعب والترفيه. ومن الأهمية بمكان بالنسبة لنظرية وممارسة الأثنوجرافيا الافتراضية أن علماء دراسات العلوم والتكنولوجيا يشيرون الى أن ممارساتنا اليومية تتشكل أيضًا من قبل جهات فاعلة غير بشرية مثل التقنيات والأشياء المادية. وما له من آثار على فهم العلاقات الإنسانية والمشاركة مع وسائل الإعلام وتقنيات الاتصالات، بما في ذلك الهواتف المحمولة والتلفزيون (Pink, Horst, Postill, Hjorth, Lewis, & Tacchi, 2016, p. 66). ولذلك لابد لنا من إعادة النظر في كيفية تورط علاقاتنا مع التقنيات التي نستخدمها في ممارستنا البحثية في طرق أدائنا وتوليد المعرفة كباحثين.

وأدى انتقال مفهوم الممارسة عبر التخصصات الأكاديمية الى إثارة تساؤل هام ألا وهو كيف تؤثر فكرة الممارسة على أبحاث الوسائط الرقمية والافتراضية؟ وقد اتجهت الدراسات الإعلامية إلى تنظيم فهمها لوسائل الإعلام وفق ثلاث فئات: الإنتاج الإعلامي والمؤسسات، أنواع الوسائط أو المحتوى أو النصوص، واستخدامات وسائل الإعلام في العالم. وقام الباحثون في الدراسات الإعلامية والأنثروبولوجيا الإعلامية والدراسات الثقافية بفحص ممارسات وسائل الإعلام في المقام الأول، من حيث استخدام وسائل الإعلام وكيف يتعامل جمهور وسائل الإعلام مع وسائل الإعلام ويفهمونها في حياتهم اليومية. وركزت الكثير من الأبحاث على التلفزيون والانشغال بالجماهير المحلية، والاهتمام بممارسات صنع المعنى بما في ذلك كيف يمكن للجمهور قراءة محتوى الوسائط على أنها نصوص رمزية يتم فك تشفيرها. وكان علماء الأنثروبولوجيا من أوائل العلماء الذين درسوا كيفية مشاهدة الناس للتلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى بسبب مشاركتهم التعاونية في مشاريع وسائل الإعلام الأصلية (Pink, Horst, Postill, Hjorth, Lewis, & Tacchi, 2016, p. 67).

وأدى الاستخدام المتزايد للوسائط الافتراضية والرقمية في الحياة اليومية إلى تجدد الاهتمام بمفهوم الممارسات بالإضافة إلى التوسع فيما قد تعنيه الممارسات في سياق استخدام الوسائط الرقمية. ولقد تحول التركيز من صنع المعنى والجماهير إلى مفهوم أوسع لمجموعة الممارسات، أو مجالات الممارسات كما تصورتها نظرية الممارسة الاجتماعية. وأصبحت صورة الجمهور المرتبط بالأريكة الذي يستهلك النصوص الإعلامية التي تم إجراؤها من قبل المنتجين صورة عفا عليها

الزمن بشكل متزايد في عالم الوسائط الرقمية. وأصبحت تقنيات الوسائط الافتراضية تجارب شخصية للغاية مضمنة في حياتنا اليومية والروتين الخاص بنا وعلاقاتنا الشخصية كما أشار العديد من العلماء، وأصبحت تقنيات الوسائط الجديدة مثل الهواتف المحمولة منتشرة في كل مكان في أجزاء كثيرة من العالم لدرجة أنها أصبحت جزءًا مهمًا وغير مرئي نسبيًا من حياتنا اليومية في الوقت نفسه، ومن خلال انتشار التقنيات التفاعلية مثل وسائل التواصل الاجتماعي وتطبيقات الهاتف المحمول، أصبحنا على نحو متزايد منتجين نشطين وصانعين لمحتوى الوسائط.

وفرضت تلك التحولات الحاسمة في الطريقة التي نتعامل بها مع وسائل الإعلام في حياتنا اليومية، تحولًا في فهمنا ونهجنا لممارسات وسائل الإعلام المعاصرة. وتقدم لنا نظرية الممارسة الاجتماعية طريقة مفيدة للاستجابة لهذه التحولات من خلال معالجة "كيفية دمج وسائل الإعلام في النسيج المتشابك للحياة الاجتماعية والثقافية "، ويمكننا من خلال الأساليب الاثنوجرافية التحقيق في الممارسات أثناء ظهورها أو أثناء إجرائها أو أثناء الإبلاغ عنها، وقد يشمل ذلك مشاركة الأشخاص في المجتمعات والعلاقات الشخصية في العالم الافتراضي والمشاركة في إنشاء محتوى وسائط (Pink, Horst, Postill, Hjorth, Lewis, & Tacchi, 2016, p. 68).

٦ – مفاهيم خاطئة شائعة حول المنهج الاثنوجرافي

يتعرض الباحث الاثنوجرافي لعدة مقولات ومفاهيم خاطئة شائعة عن المنهج الاثنوجرافي، تؤدي إلى سوء فهم حول دور وقيمة الأساليب الاثنوجرافية، وتتناول تلك المقولات الخاطئة بعض الالتباسات حول البحث الاثنوجرافي النابع من مكانته كعلم نوعي أساسًا قائم على العمل في الميدان. وتعكس تلك المقولات الخاطئة تأكيدات مفهومة حول نهج غير مألوف للبحث، بينما تتغاضى عن المساهمات القيمة التي قدمها البحث الاثنوجرافي ولا يزال يقدمها للدراسة العلمية للثقافة والمجتمع. نستعرض بعضها كالتالي (BoEllstorff, 2012, pp. 30-41):

١,٦ – البحث الاثنوجرافي غير علمي

قسم العديد من الناس العلوم إلى "علوم طبيعية " (على سبيل المثال، الفيزياء وعلم الأحياء) و" العلوم الإنسانية " (بما في ذلك الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع) ويشيرون الى أن العلوم الإنسانية ليست حاسمة وقطعية بشكل كافي. وينعكس هذا الجدل في الأوساط الأكاديمية في نظرات المعرفة المتناقضة للوضعية والتفسيرية. الرأي الأول القائل بأنه يجب التعبير عن المعرفة بشكل مثالي من خلال قوانين قابلة للتعميم، بغض النظر عن السياق الثقافي. ومع ذلك فإن كل المعرفة العلمية هي بصرية. ومع ذلك فإن كلمة " تفسيرية " لا تعني الافتقار إلى القوة، بل يعكس مفهوم التفسير التعقيد الهائل لما يدرسه طلاب العلوم الإنسانية، وأن النجاح العلمي جزئي لأننا لا نستطيع استيعاب ضخامة الثقافة بشكل كامل. وهذا الموقف يعد دافع لتحسين الأساليب والنظريات الاجتماعية باستمرار.

وإذا كان البحث العلمي يجب أن يختبر الفرضيات، ويعتمد على التجارب، ويجب أن يكون تنبؤيًا، بالإضافة الى أن يكون كميًا، فإن علماء الأثنوجرافيا يركزون على العمليات المعقدة للثقافة التي تقاوم العلاج كفرضيات قابلة للاختبار. كما يعتمدون على الملاحظة الميدانية وليس التجريب؛ ويطور علماء الأثنوجرافيا التفسيرات بدلاً من التنبؤ؛ بالإضافة الى استخدام الأساليب الكيفية (وإن لم يكن حصريًا).

٢,٦ – البحث الاثنوجرافي أقل كفاءة من البحث الكمي

عادة ما يجد علماء الأثنوجرافيا أعمالهم مصنفة على أنها " غير ذات أهمية إحصائية " أو " غير حاسمة"، مع تجاهل سنوات من التحقيق الدقيق مقارنة بالأشكال قصيرة المدى، وأحيانًا يوصم التحليل الكمي بالسطحية. وتستند عمليات الرفض هذه إلى الافتراض الأساسي بأن النتائج المستندة إلى البيانات الرقمية أكثر صحة من الأشكال الأخرى لإنشاء المعرفة.

وعلى الرغم من سهولة الحصول على البيانات الكمية، فقد يكون من الصعب تحليلها وقد يتطلب مثل هذا التحليل برامج معقدة ومكلفة. ومع ذلك حتى مع وجود الأجهزة والبرامج المناسبة تعتمد تلك البيانات والدراسات الكمية إلى حد كبير على التفسير البشري. إن الممارسة الاثنوجرافية في جوهرها ملاحظة البشر في تفاعلهم مع البشر الآخرين وسياقاتهم الاجتماعية

والمادية، ويقوم البحث الاثنوجرافي بالوصول إلى الترتيبات المعقدة التي يحل الناس بواسطتها المشاكل ويصنعون المعاني. ويتمتع العمل الاثنوجرافي بدرجة عالية من الصلاحية لأن الباحث الاثنوجرافي يلاحظ ويتفاعل بشكل مباشر مع ما يريد معرفته بشكل لا يخرج الظواهر من سياقاتها، وبالتالي جعلها غير قابلة للتفسير.

إن المنهج الاثنوجرافي المتمثل في التعايش مع ثقافة أو نشاط مستمر من أجل دراسته، يعني أنه يجب على الباحث الاثنوجرافي الاعتماد على الأساليب الكيفية للمراقبة والمحادثة لاستيعاب وتحليل ما يحدث من حوله. إن تجارب الحياة وأنماطها وإيقاعاتها وموضوعاتها وممارساتها لا يمكن التعبير عنها بسهولة بالأرقام. ويمكن أن يسفر البحث الكيفي عن رؤى عميقة تستعصي على القياس الكمي. إن الحجج التي تفترض مسبقًا أن البيانات الكمية فقط هي مادة العلم، تفتقر إلى إدراك العناصر المعقدة المادية وغير المادية التي تشكل الحياة البشرية، والتي يمكن فهمها بشكل أفضل من خلال النهجين الكيفي والكمي.

٣,٦ – البحث الاثنوجرافي شكل من أشكال السرد القصصي

يؤدي الخلط بين العلم والقياس الكمي بانتظام إلى الافتراض بأن النتائج الكيفية التي ينتجها علماء الأثنوجرافيا ليست أكثر من " سرد قصصي". في سياق النتائج التي تم التعبير عنها في العلوم الأخرى مثل الصيغ والمعادلات والإحصاءات والرسوم البيانية والمخططات والجداول، يمكن أن تبدو البيانات المعيارية غير مقنعة وأدبية فقط. ويُنظر أحيانًا إلى البيانات الكيفية على أنها صادرة عن ملاحظات محدودة ومتحيزة لباحث يعمل بدون قوة الأرقام. وقد تبدو البيانات الاثنوجرافية في الواقع على أنها مجرد سلسلة من القصص أو مجموعة من الحكايات أو الانطباعات.

إن جزءً من سوء الفهم هذا ينبع من الصيغة الضيقة للعلم، ويرتكز جزء آخر على رؤية غير مكتملة لعمل النصوص الاثنوجرافية. يصوغ علماء الأثنوجرافيا تحليلات شاملة من بياناتهم تستكشف المعتقدات والممارسات داخل الثقافات وفيما بينها، وعادة ما يتم جمع البيانات في الميدان على مدى فترة طويلة. وهي لا تمثل حوادث معزولة ولكن حالات ومظاهر متعددة

للظواهر التي تشمل العديد من الأفراد المختلفين، والتي لوحظت في السياق. ويتضمن التحليل الاثنوجرافي تقييمًا صارمًا لكمية هائلة من البيانات التي تشمل مراقبة المشاركين والمقابلات والبحث التاريخي وتحليل المحتوى. ويتمثل جزء من التحدي في البحث الاثنوجرافي في تحليل البيانات الكمية الغنية ونقلها إلى القارئ. وغالبًا ما يقدم الباحث الاثنوجرافي في عمله الكتابي حالات أو حوادث أو قصصًا أو أحداثًا حرجة رئيسية لتوضيح الأنماط التي لاحظها. وهي تجذب الانتباه إلى الممارسات الثقافية وتقدم للقارئ أمثلة ملموسة للقضايا قيد المناقشة.

٤,٦ – تقويض البحث الاثنوجرافي من خلال الذاتية

هناك مقولة خاطئة تتعلق بالبحوث الاثنوجرافية ألا وهي أنها تتعرض للخطر من وجهة النظر الشخصية للباحث. وتستند الأثنوجرافيا إلى فكرة أن الإثنوجرافيين ينتجون أعمالًا ذات صلاحية عالية من المشاركة الموضعية في هذا المجال. هذه المشاركة ليست ذاتية بمعنى أنها رأي شخص واحد ولا شيء أكثر من ذلك. وقد تبدو الأثنوجرافيا ذاتية فقط لأن المواد التي تسعى إلى فهمها وتحليلها لا تخضع للتنبؤ والتحكم الممكن. إن الباحثين الإثنوجرافيين في جوهرهم يتتبعون هدفًا متحركًا، قادرًا على الأعمال المستمرة لتقرير المصير والإبداع.

ويحتوي كل العلم على عناصر قوية من الذاتية. بمعنى أن العلم ينتج من عمل العلماء. والذاتية هي شرط لا مفر منه في العلم. ولا يوجد عالم موضوعي خالص تكون فيه المصالح والتحيزات والميول والمخاوف، والمواقف والتقسيمات والأفكار والأحكام، والبديهيات والافتراضات المسبقة للباحثين غائبة وبدون تأثير. فمن الأكثر علمية أن ندرك أن العلم يولد المعرفة التي هي نتاج معقد لما هو معروف بالفعل (ما إذا كان ما هو معروف مقبولًا أم معترضًا) والنظرة العالمية المعاصرة التي تشكل الاهتمامات والمواقف. وتعتبر الذاتية في الواقع جزءًا حيويًا من الدقة الاثنوجرافية، ليس فقط لكيفية تقديمها لنا موقعًا يمكن من خلاله الانخراط والتفسير، ولكن لأنها تشكل العمود الفقري للفهم بين الذوات.

٧ – مستقبل البحث الاثنوجرافي

تتضمن الأثنوجرافيا الافتراضية تطوير وعي حاد بالنسيج الاجتماعي للتجربة الحية أثناء انتقالها بين الوسائط وعبر المواقف. ولقد تغيرت الأبحاث الاثنوجرافية الافتراضية جنبًا إلى جنب مع التكنولوجيا التي درستها على مدى العقود القليلة الماضية. ونظرًا لأن التركيز الحالي ينصب على النسيج الاجتماعي للإنترنت، فإن الإنترنت ليس مجرد تقنية، ولكنه مصمم من قبل البشر ويستخدمه البشر، ولذلك فإن استخدام الأثنوجرافيا الافتراضية كمنهجية لدراسة بيئة عبر الإنترنت يؤدي الى تحليل العديد من الظواهر المنتشرة على الفضاء الإلكتروني، ألا انه ينطوي أيضًا على مشاكل تتعلق بالأخلاق والخصوصية. ويجب أن يراعي الإثنوجرافيون أخلاقيات البحث في وجودهم في بيئة البحث، لأنه من السهل جدًا اختباء الباحث الاثنوجرافي خلف شاشة الكمبيوتر ويصبح غير مرئي. لذلك يجب فحص أخلاقيات البحث بعناية على أساس كل حالة على حدة، ويجب على علماء الأثنوجرافيا إعادة النظر في اختياراتهم قبل وأثناء وبعد عملية البحث من أجل فهم السياقات الأخلاقية الكاملة للمادة.

وبما أن الإنترنت ليس موحدًا أو متشابهًا في جميع أنحاء العالم، لذلك أصبحت المقارنة بين الثقافات ممكنة الآن نظرًا لأن المواد التي يوفرها الأشخاص في البيئات عبر الإنترنت يمكن الوصول إليها على نطاق عالمي أكثر من السابق، ألا انه لا زال يجب على علماء الأثنوجرافيا التفكير في اختياراتهم على أساس كل حالة على حدة. إن التكنولوجيا الحالية مرتبطة إلى حد كبير بالبيانات سواء إنتاجها أو تحليلها، ولذلك فإن الطبيعة الكيفية لتلك البيانات يمكن أن توفر آفاقًا جديدة للباحثين، وبما إن حياتنا أصبحت جزءًا لا يتجزأ من التقنيات بشكل متزايد، فسيكون من الضروري للعلماء الإثنوجرافيين مواكبة التطورات ومواصلة تحليل كل من البيئات عبر الإنترنت وخارجها، وما إذا كانت هذه الأخيرة ستوجد في المستقبل على الإطلاق. إن الإنترنت ليس وسيلة للتواصل التكنولوجي فقط ولكنه متجذر ومتشعب في المجتمع المعاصر بطريقة عميقة للغاية، مما يعني أن المستقبل سيكون للبحوث الاثنوجرافية الافتراضية التي ستواكب انغماس الأفراد والمجتمعات في الحياة الافتراضية.

خاتمة

تعد الأثنوجرافيا الافتراضية أو الرقمية، والتي انبثقت من الأثنوجرافيا التقليدية، أحد اهم الأساليب الكيفية لجمع البيانات في البحوث الميدانية المطبقة على الواقع الافتراضي. وذلك في إطار مواكبة التطور التكنولوجي الذي اجتاح العالم في السنوات الأخيرة، وانتقال التفاعل في الواقع من مرحلة التفاعل وجها لوجه، لمرحلة التفاعل عبر الشبكة العنكبوتية وشبكات التواصل الاجتماعي وكان لزاما على الأثنوجرافيا التقليدية إن تتطور وتواكب تغير ميدان البحث من المجتمع الواقعي الى الافتراضي أو الرقمي. وقد طال هذا التحديث أدوات البحث المستخدمة في الأثنوجرافيا الافتراضية، ولم يعد شرطا أن تكون المقابلة وجها لوجه، وإنما طبقا للواقع الافتراضي فمن الممكن إجراءها عن طريق أحد تطبيقات شبكات التواصل الاجتماعي مثل تطبيق ماسينجر على سبيل المثال، بالإضافة الى العديد من التقنيات الأخرى التي أتاحتها شبكات التواصل الاجتماعي والشبكة العنكبوتية. وهو ما فتح أمام الباحثين مجالا واسعا لدراسة الظواهر المستحدثة في المجتمعات، جراء ذلك التطور التكنولوجي ومن ثم التفاعل مع المحتويات الإلكترونية، مما يعمل على فتح أفاق جديدة للبحث العلمي الاجتماعي، ومواكبة التغيرات والمستحدثات التي تطرأ على المجتمعات.

المراجع العربية

١. فيليب لابورت، تولرا جان، و بيار فارنييه. (٢٠٠٤). *اثنولوجيا انثربولوجيا*. (مصباح الصمد، المترجمون) بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

٢. محمد الجوهري. (٢٠٠٦). *مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري*. تم الاسترداد من file:///C:/Users/kc/Downloads/40903261%20(1).pdf

٣. تي في ريد. (٢٠١٨). *الحياة الرقمية – الثقافة والسلطة والتغير الاجتماعي في عصر الانترنت*. (نشوى ماهر كرم الله، المترجمون) الرياض: العبيكان للنشر.

المراجع الإنجليزية

BoEllstorff, t. (2012). Ethnography and virtual worlds – a handbook of method. london : Princeton University Press – Printtceton and Oxford.

4. Ghosh, B. (2020, · December 21). Digital Ethnography during the COVID 10 Pandemic. Retrieved 11 23, 2021, from ResearchGate:

https://www.zora.uzh.ch/id/eprint/199780/1/DIGITALETHNOGRAPHYDURINGTHECOVID-19PANDEMIC.pdf

5. Günel, G., Varma, S., & Watanabe, C. (2020, June 9). A Manifesto for Patchwork Ethnography. Retrieved 11 24, 2021, from Cultural Anthropology: https://culanth.org/fieldsights/a-manifesto-for-patchwork-ethnography

6. Haverinen, A. (2015, 12 31). Internet Ethnography: Th e Past, the Present and the Future. Retrieved 11 9, 2021, from Ethnologia Fennica: https://journal.fi/ethnolfenn/article/view/59290

7. Hine, C. (1994). VIRTUAL ETHNOGRAPHY. h International Conference on Public Communication of Science and Technology (p. 2). Montreal: Brunel University, Uxbridge, Middlesex, UB8 3PH, UK.

8. Hine, C. M. (2001). Virtual Ethnography . londer sage publication.

9. HUBBARD, D. H. (2011, 1 11). Defining Virtual Ethnography. Retrieved 11 7, 2021, from Cyber Anthropology: https://www.cyber-anthro.com/2011/01/defining-virtual-ethnography/

10. Kozinets, R. (2006). Netnography. In V. Jupp (Ed.), The sage dictionary of social research methods. London: Sage Publications.

11. Kozinets, R. (2010). Netnography: Doing Ethnographic Research Online. London: Sage Publications.

12. Lupton, D. (2015 , November 29). Digital sociology. Retrieved 11 7, 2021, from CATALOGUE TROVE ERESOURCES: https://catalogue.nla.gov.au/Record/6774375

13. Miller, D. (2018, 8 28). Digital anthropology. Retrieved 11 10, 2021, from Cambridge Encyclopedia of Anthropology: https://www.anthroencyclopedia.com/entry/digital-anthropology

14. Ogbu, j. (1996). Educational Anthropology" In Encyclopedia of Cultural Anthropology. Henry Holt and Company.

15. Pink, S., Horst, H., Postill, J., Hjorth, L., Lewis, T., & Tacchi, J. (2016). Digital Ethnography. London : SAGE Publications Ltd.

16. WATSON-GEGEO, K. A. (1988, 12 4). Ethnography in ESL: Defining the Essentials. TESOL QUARTERLY, p. 575 .

هوامش البحث

[1] – مؤرخ إغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، زار أماكن عديدة حول العالم ودون ملاحظاته عن الأماكن والشعوب في العديد من كتبه.

[2] – هو محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، ولد عام ١٣٧٧ ميلاديا، وهو رحالة ومؤرخ وقاض من قبيلة لواتة، ولقب بأمير الرحالة المسلمين

[3] – أغسطس لودفيج فون شلوزر مؤرخ ألماني وضع أسس الدراسة النقدية للتاريخ الروسي. كان عضوًا في مدرسة جوتنجن للتاريخ.

[4]– عالم أنثروبولوجيا أمريكي من أصل نيجري (١٩٣٩ – ٢٠٠٣) له عدة نظريات حول العرق والذكاء، وكيف لعبت الاختلافات العرقية دورا في الإنجاز التعليمي والاقتصادي

[5] – أستاذ التسويق ورئيس قسم التسويق في كلية شوليتش للأعمال في جامعة يورك